محاضرة : الفكر الجزائري الحديث

(حمدان خوجة)

ومن أبرز الشخصيات التي لعبت دورا هاما في الدفاع عن القضية الجزائرية حمدان بن عثمان خوجة الذي كان يحضا بمكانة عالية خلال فترة الحكم التركي،وهذا راجع لمناصب التي تقلدها والدور الفعال الذي لعبه،خاصة في مجال التجارة الذي أكسبه مكانة في الأوساط الحكومية هذا ما أهله للدخول في غمار السياسة .ومن هنا يمكننا طرح التساؤل التالي ما هي مميزات فكر حمدان خوجة؟ وكيف أسهم في الفكر الجزائري؟

ولد بمدينة الجزائر، سنة 1773 نشأ وتعلم بها ، درس القانون على يد أبيه، بعد وفاته، عوضه في التدريس وأصبح أستاذا في الحقوق المدنية والقوانين الإسلامية. وفي سنة 1784م صحب خاله في زيارة لأهم مدن البلقان والقسطنطينية وغيرها. فقال" :كنت قد تجشمت أسفارا صرفت فيها برهة من العمر، لولا اتهام النفس لعدتها من صالح، أعمالي..[1]

وفي سنة 1820 زار فرنسا وتعلم اللغة الفرنسية. وبعد الاحتلال الفرنسي للجزائر، وعدم وفاء الفرنسيين بالشروط التي اشترطتها الحكومة التركية عليهم قبل أن تسلم لهم البلاد، نظم الجزائريون بزعامة حمدان أول حزب وطني سياسي عرف بلجنة المغاربة أو حزب المقاومة، فقارع حمدان الاستعمار الفرنسي بقلمه ولسانه، فنفاه الفرنسيون من الجزائر، فكان أول عربي مسلم يطرد من وطنه من قبل دولة أجنبية من أجل قضية وطنية. وبعد أن أقام مدة قصيرة في فرنسا (1833 – 1836م) سافر إلى القسطنطينية حيث اشتغل بالتأليف والترجمة، والتحرير لجريدة «تقويم وقائع» إلى حين وفاته ، يقول : "لقد تجولت في أوربا كثيرا وق درت الأمم الحرة لمنفعة الطباعة، وجدارة الشعوب المتمدنة بالصحافة والنشر "[2] ،ولايعرف تاريخ وفاته على وجه التحديد يرجح ما بين سنة 1840 و 1845.

<u>أبرز المهام التي قام بها :</u>

---

[1] حمدان بن عثمان خوجة، إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس من الوباء، تحقيق وتقديم محمد بن عبد .الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1968 ، ص4 .

[2] George Yver, " Si Hamdan ben Othman Khoudja " , revue Africaine , n° 57, 1913 , p110

- انتخبه أعيان الجزائر وعلماؤها عضوًا ممثلاً، ومندوبًا مفوضًا عنهم للدفاع عن القضية الجزائرية.
- وقد تولى حمدان وظيفة مستشارا للداي حسين يطمئن عليه ويعتمد عليه [1]، كلفه الداي حسين باشا–بعد نكبتي سيدي فرج و سطاوالي– بالبحث عن قائد الجيش وإلزامه بإعادة تنظيم قواته وإرغامه على جمع ما أمكن من الجنود كمحاولة أخيرة لفك الحصار عن مدينة الجزائر.
- في عهد الإحتلال عينه الجنرال" كلوزيل" عضوا في بلدية الجزائر وفي اللجنة المكلفة بتعويض الأشخاص اللذين فقدوا ممتلكاتهم، لكنه عزل من مناصبه هذه لأنه كان شوكة في حلق الحكومة الفرنسية في الجزائر نظرا لمواقفه الجريئة، مثل رفض السماح " لكلوزيل" بالإستيلاء على المساجد والمؤسسات الخيرية. ولقد كان تجريده من جميع أملاكه عاملا آخر زاد من سخطه على الإستعمار الفرنسي فرفع قضيته هذه إلى المحاكم العدلية العليا بباريس، طمعا في أن تنصفه من ظلم الحكام الفرنسيين بالجزائر، وبعد انتظار ثلاث سنوات، اعتبرت قضيته ملغاة.
- دافع على احترام ما جاء في وثيقة الاستسلام التي تم التوقيع عليها يوم 5 جويلية 1830، وحارب سياسة الإبادة والاستئصال.
- فقام بدور الوسيط بين" الأمير عبد القادر" و" الحاج أحمد باي" "الباب العالي" في صالح القضية الجزائرية.
- رفع الاعتراضات والشكاوي إلى ملك فرنسا " لويس فيليب" بتاريخ 10 جويلية 1833 طالبا منه التدخل لانقاد الموقف [2].

[1] محمد العربي الزبيري ،مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة بوضربة ، الجزائر ،الطبعة الثانية ، سنة 1981 ، ص 137
[2] أبو القاسم سعد الله ،الحركة الوطنية الجزائرية ،دار الغرب الاسلامي ، الجزء 2 ، الطبعة4 ، 1992، ص 31

- كما أرسل يوم 3 جوان 1833 مذكرة إلى الماريشال " سولت " وزير الحربية الفرنسي، ضمنها جميع المخالفات التي ارتكبتها الجيوش الفرنسية في الجزائر.
- وأعلن في شهر جويلية 1833 عن تشكيل اللجنة الإفريقية للتحقيق في الوضع الذي آل إليه الجزائريون.

أهم مؤلفاته:

فمعظم آثار حمدان خوجة هي مؤلفات وترجمة ومذكرة ورسائل. وهو لم يلجأ إلى الكتابة إلا بعد أن مر بمراحل تجارية وسياسية متعددة. ولما فشل في جميعها وضاعت منه ممتلكاته وتقلصت آماله، لجأ إلى ميدان آخر ليعوض ما فاته عسى أن يريح نفسه شأنه في ذلك شأن كثير من المفكرين أمثال ابن خلدون الذي فشل في تحقيق ما كان يصبو إليه من مناصب سياسية، فعوض ذلك بتآليف مشهورة. وقد نجح حمدان في هذا اللون نجاحا كبيرا. إذ استمر يكتب بروح متفتحة وبأفكار جديدة مدعمة بالحجج القوية متسما في ذلك بقدرة فائقة. إذ أنه في مدة قصيرة ألف المرآة والمذكرات وراسل شخصيات متعددة على مختلف المستويات، واتصل بجناح المعارضة في باريس وأثر فيهم وتأثر بهم. ولم يكتف بالمراسلات السياسية، بل وسع نشاطه فخاطب بجرأة أولئك الجامدين من المسلمين بأصول فقهية وأسس علمية لا تقبل جدالا واستطاع أن يسلم من آذاهم، وقلما نجد هذه الروح المتفتحة لدى معاصريه من المسلمين، وأهم مؤلفاته :

1. كتاب " المرآة " صدر في أكتوبر 1833 باللغة العربية، ثم ترجم إلى الفرنسية تحت عنوان"لمحة تاريخية وإحصائية حول إيالة الجزائر". ويعتبر هذا الكتاب من أهم المصادر التي تطرقت إلى تاريخ الجزائر في أواخر العهد العثماني وبداية الإحتلال الفرنسي، كما فضح فيه مساوئ الإدارة الإستعمارية والواقع المزري للشعب الجزائري، حاول حمدان قدر المستطاع استخلاص النتائج انطلاقا من المعلومات التي عرضها والوقائع التي سجلها وهو في ذلك يهدف إلى إقناع القاريء والمتلقي ،ملتزما الدقة والصدق في

تسجيل الأخبار لأنهما ضروريان لإقناع مخاطبه ،كما عمد إلى ترتيب المعلومات ومقارنتها مما أكسبها منطقية وقربها من ذهن القارئ[1] .

2. كتاب " إتحاف المنصفين والأدباء في الأحتراس من الوباء" صدر عام 1836، كتبه باللغة العربية والتركية، وحث فيه على الوقاية من الأمراض وكيفية علاجها.

3. رسالة أسماها " حكمة المعارف بوجه ينفع لمسألة ليس في الإمكان أبدع" ألفها سنة 1837، يظهر فيها تأثره بأفكار الإمام الغزالي.

4. ترجمة لكتاب " نور الإيضاح ونجاة الأرواح " للشيخ " حسين الشرنبلالي الحنفي " (1585–1659) من اللغة العربية إلى التركية وسماها " إمداد الفتاح" وموضوعه الفقه الحنفي.

5. مخطوط ضخم به 228 ورقة وهو عبارة عن ملخصات ونسخ وفتاوي لشيوخ وعلماء مغاربة ومشارقة.

6. مذكرة قدمها للجنة الافريقية في جويلية 1833 والتي تحتوى على قضايا هامة حلل و وصف من خلالها أوضاع الجزائريين واضطهاد السلطة الفرنسية.

7. قصائد وصف فيها حالته وحالة أهل بلاده

<u>فكره :</u>

تلقى دروسه على يد شيوخ كثيرين، منهم محمد بن علي الذي راسله حمدان قائلا: "نحيي عتبة شيخنا وأستاذنا ومربينا."

وقد تلقى حفظ القرآن في صغره، وما يدل على هذا استعماله الكبير للآيات القرآنية التي استدل بها في كتاباته خاصة كتابه " إتحاف المنصفين" ،حيث يظهر جليا المامه بالسنة النبوية واصول الفقه خاصة المذهب الحنفي.بالإضافة لإطلاعه على الفكر الفلسفي وثقافات الشعوب المختلفة ، كما كان مطلع على أهم الكتب في الفكر الإسلامي.

[1] ناصر الدين سعيدوني ن من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الاسلامي، دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1999 ،ط1 ، ص 491

و لعل الأستاذ عبد الجليل التميمي محق كثيرا فيما ذهب إليه، بإن حمدان يعد الشخصية الجزائرية التي تمتعت بثقافة وإطلاع واسعين جدا والذي ترك عددا من الوثائق السياسية الهامة حول أحداث الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي.وقد نذهب بعيدا بالقول إن حمدان خوجة يعد الشخصية العربية الإسلامية الوحيدة التي تفطنت إلى أهمية الذات الأخرى من غير الذات العربية الإسلامية، قال" :كما أقول أن الحكمة لا يستكنف العاقل من اقتنائها، لضعة من

فعلها أو قالها، بل يبادر للحق وقبوله، واستجلاء النفع والحصول عليه"[1] ،أي أنه سبق رافع رفاعة الطهطاوي وخير الدين باشا وغيرهما في المحاكاة مع الآخر بلغة عربية وغير عربية. ، اتفقت بعض الشخصيات مع حمدان في هذه الآراء والمواقف، والتي دعت إلى الانفتاح على الغرب، والاستفادة من خبراته، فهذا ابن العنابي الجزائري[2] ،كان قد طرح أفكاره التنويرية في كتابه" السعي المحمود في نظام الجنود" [3].

لحمدان آثار علمية قيمة، تعتبر من المصادر الأساسية لدراسة الفترة الأخيرة من العهد العثماني في الجزائر أثناء الإحتلال الفرنسي، كما أنها تعطينا صورة واضحة عن مستوى الفكر في العالم الإسلامي آنذاك، وعن العلاقات بين الجزائر وغيرها من البلدان.

بعد علنية التواصل التي حدثت بين العرب والغرب وأطلعوا على منجزاته ، انقسم العالم العربي الإسلامي إلى فريقين، ففريق وقفوا موقف الحذر تارة، والإنكار لما توصل إليه العالم الغربي تارة أخرى ،ومبررهم أنا الغرب مستعمر وصلبي تجب محاربته ورفض كل ما يأتي من عنده ،وفريق آخر يرى بضرورة الأخذ من الغرب خاصة العلوم والمعارف ،ولعل حمدان خوجة كان من أنصار الفريق الأخير ،بحيث نستطيع أن نعتبره رائد الإصلاح السياسي والاجتماعي في العالم الإسلامي آنذاك ،حث الحكام وولاة أمور المسلمين على التجديد، وإحداث إصلاحات على أجهزة الدولة والمجتمع من أجل مواكبة الحضارة الحديثة فقد كان يدعو إلى نبذ التعصب والتطرف[4] ،و أخذ علماء الدين بظاهر الآيات والأحاديث النبوية

---

[1]حمدان بن عثمان خوجة، إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس من الوباء، تحقيق وتقديم محمد بن عبد .الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1968 ، ص44

[2] علي علواش وآخرون، معجم مشاهير المغاربة ,إعداد فرقة البحث العلمي بجامعة الجزائر ,الجزائر1995 , ص393 . .

3 سعد الله ,رائد التجديد الإسلامي، محمد ابن العنابي، صاحب السعي المحمود ... ، ط2 .،دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص. 57 .

[4]رسالة حمدان خوجة إلى السلطان العثماني.

فأغلقوا باب الاجتهاد والتزموا التقوقع واعتبروا كل شيء أخذ عن غير مسلم كفرا، فأدرك حمدان أن هذا هو السبب في تخلف العالم الإسلامي بالرغم من أنه سبق العالم الغربي إلى الحضارة. لهذا ناشد السلطان العثماني وأولي الأمر أن يسرعوا إلى وضع حد للأعمال العقيمة التي كان يمارسها هؤلاء الجامدون، وأن يبادروا إلى إصلاح كل ما من شأنه أن يلحق ضررا بالبلاد الإسلامية، لأن الحد من نشاطهم هو من باب إصلاح المجتمع الإسلامي ومنطلق لتحضره، و قال حمدان في هذا الصدد (يجب على السلاطين وعلى أولي الأمر أن يبادروا بإصلاح ما يدخل عليهم الضرر (على الرعية).. ولا يرخص لهم- بعد تحقق ذلك- أن يساعدوا الجهال على تصلبهم وجهلهم) ،كما كان يدعو الحكام إلى التفطن إلى قاعدة هامة في التجديد إذ قال: (إن كل عصر له متطلبات وخصائص جديدة ولدى ظهور عادة حديثة وجب التخلي عن القديم حتى نتفادى حدوث اضطراب وقلق في الشعب، وحتى لا يعرقل ذلك تسيير دولاب الإدارة الناجحة).

و في الوقت نفسه انتقد هؤلاء الحكام الذين لم يطبقوا الشريعة الإسلامية لأنهم لم يفهموا جيدا مبادئها السمحة التي من بينها أن ظروفا تترتب على زمن وحاجات الإنسان لم تتوقعها القوانين ولذلك يجب على أي مشرع أن يفهم هذه الضرورات ليعمل على إيجاد طريقة حكيمة لتطبيق هذه القوانين.

وبهذه العقلية المتفتحة والرؤية العميقة أدرك حمدان خوجة عوامل تطور المجتمعات، أي أنه أدرك قيمة الآخر،وقد اعتبر رائدا في عصره الذي حمل مثل هذا التصور ،كما له الفضل في مساهمته في تعريف العالم الأوروبي بحقيقة الشريعة الإسلامية خاصة في كتابه المرآة حين نشر باللغة الفرنسية. وهو الوحيد في العالم العربي الإسلامي من نشر له مؤلف بالفرنسية في أوروبا عام 1833.

و أكد خوجة على حاجة العالم الإسلامي بالاستعانة بالغرب الذين تقدموا أشواطا كبيرة في الطب،خلاف للمسلمين الذين أهملوا أمر الطب و نكبوا على العلوم الشرعية والأدبية ،فامتاز الأوروبيون واليهود بتطور مهاراتهم،فتطورت عساكرهم ومصانعهم ، فتقووا هم و ضعفنا نحن ، وعليه فقد تفطن إلى أن بناء الحضارة يعتمد على العلوم التجريبية

والرياضيات والطب، و المسلمون أهملوا هذا الجانب الفكري الخصب وحصروا اهتماماتهم في الإقبال على العلوم النظرية.

إذن حمدان خوجة بهذا التحليل والتركيب ومكونات شخصيته المبنية على التفتح والمعرفة العميقة للعوامل المحركة للمجتمعات وأجهزتها الحاكمة،وقد أصاب إلى حد كبير في طرق أهم المواضيع في عصره إذ كثيرا ما دعا إلى تطبيق نظريات إصلاحية إلا أن دعوته لم تتعد حدود الكلمة المكتوبة ولم تحظ بتأييد أو تطبيق في المجتمع الإسلامي آنذاك، خلافا لما كان بالجانب السياسي من شخصيته التي كان لها تأثير واضح في الجانب الاجتماعي سواء وهو في الجزائر أوفي فرنسا أوفي اسطنبول.

فكل دعواته كانت تصب في الحفاظ على انتماء شعبه التاريخي والحضاري وحتى اللغوي رغم أنه كان ذو ثقافة أوروبية عامة وفرنسية خاصة ولم يتجنس أبدا بالجنسية الفرنسية و كان بإمكانه تحقيق ذلك لكنه بقي وفيا لوطنه وشعبه ولم يرضى للوطن بديل.